مدخل إلى
الكتاب المقدّس

الكتاب المُقدَّس مُجلَّدٌ يضمُّ ستًّا وستِّين وثيقةً أوحى بها الله. هذه الوثائق مُدرَجةٌ ضمن عهدَين، هُما القديم (٣٩ وثيقة) والجديد (٢٧). وقد كتب أنبياءُ وكهنةٌ وملوكٌ وقُوَّادٌ من بني إسرائيل أسفارَ (كُتبَ) العهد القديم باللُّغة العبريَّة (بينها مقطعان بالآراميَّة). كما كَتَبَ الرُّسُل ومُعاوِنوهم أسفار العهد الجديد باليونانيَّة.

يبدأ سِجِلُّ العهد القديم بخَلق الكون، وينتهي قبلَ نحو أربع مئة سنة من مجيء المسيح أوَّلَ مرَّة.

ومجرى التاريخ عبرَ العهد القديم يتحرَّك على طول الخُطوط التالية:

- خَلق الكون
- سقوط الإنسان
- دينونة الطُّوفان على الأرض
- إبراهيم وإسحاق ويعقوب (إسرائيل): آباء الأُمَّة المُختارة قديمًا
- تاريخ إسرائيل
  - التغرُّب في مصر: ٤٣٠ سنة
  - الخروج ورحلات البريَّة: ٤٠ سنة
  - امتلاك كنعان: ٧ سنين
  - عهد القُضاة: ٣٥٠ سنة
  - المملكة المتَّحدة: شاول، داود، سليمان: ١١٠ سنين
  - المملكة المنقسمة: يهوذا/ إسرائيل: ٣٥٠ سنة
  - سَبيُ بابل: ٧٠ سنة
  - الرُّجوع وإعمار البَلَد مُجدَّدًا: ١٤٠ سنة

وتفاصيل هذا التاريخ مشروحة في الأسفار التسعة والثلاثين المُقسَّمة خمسَ مجموعات:

- الناموس (الشريعة): ٥ (التكوين- التثنية)
- التاريخ: ١٢ (يشوع – أستير)
- الحِكمة: ٥ (أيُّوب – نشيد الأنشاد)
- الأنبياء الكِبار: ٥ (إشعياء – دانيال)
- الأنبياء الصِّغار: ١٢ (هوشع – ملاخي)

بعد اكتمال العهد القديم، مرَّت فترةُ صمت دامت ٤٠٠ سنة، في أثنائها لم يتكلَّم الله أو لم يُوح بأيَّة أسفار مقدَّسة. وقد نُقض ذلك الصَّمت بقُدوم يوحنا المعمدان مُعلِنًا أنَّ الربَّ المُخلِّص الموعود قد جاء. ويُسَجِّل العهدُ الجديد باقيَ القِصَّة من ولادة المسيح حتَّى بلوغ التاريخ كُلِّه نهايتَه والحالةِ الأبديَّة النهائيَّة. وهكذا فإنَّ العهدين ينطلقان من الخلق حتى الاكتمال الأخير، بل من الأزل حتى الأبد.

وبينما تتوسَّع أسفارُ العهد القديم التسعةُ والثلاثون في تاريخ بني إسرائيل والوعد بالمُخلِّص الآتي، تُركِّز أسفارُ العهد الجديد السبعةُ والعشرون على شخص المسيح وتأسيس الكنيسة. فالأناجيل الأربعة تزوِّدنا بسجِلٍّ ولادة المسيح وحياته

وموته وقيامته وصعوده. وكُلٌّ من الكُتَّاب الأربعة ينظر إلى الحدث الأعظم والأهمّ في التاريخ، مجيء الله- الإنسان يسوع المسيح، من منظورٍ خاصّ. فإنّ متّى ينظر إلى المسيح من منظور ملكوته؛ ومرقس من منظور خادميّته؛ ولوقا من منظور إنسانيّته؛ ويوحنا من منظور أُلوهيّته.

ثُمَّ يُطلِعنا سفرُ الأعمال على قصّة الأثر الذي خلّفته حياة يسوع المسيح، الربِّ المُخلِّص، وموته وقيامته، بدءًا بصعوده وما تلاه من نزول الروح القُدُس وولادة الكنيسة، عبرَ السِّنين الباكرة التي شهدت الكرازة بالإنجيل على أيدي الرُّسُل ومُعاونِيهم. فإنّ سفر الأعمال يُسجِّل تأسيس الكنيسة في اليهوديّة، وفي السامرة، ثمّ في قلب الإمبراطوريّة الرومانيّة.

أمّا الرسائل الإحدى والعشرون فقد كُتبت إلى كنائسَ وأفرادٍ لشرح أهمّيّة شخص يسوع المسيح وعمله، بما لذلك من مضامين تتعلّق بالحياة والشهادة حتّى رجوعه.

ثُمَّ يُختَم العهد الجديد بسفر الرؤيا الذي يبتدئ بتصوير عصر الكنيسة الرّاهن، ويبلغ الذُّروة برجوع المسيح لإقامة ملكوته على الأرض، آتيًا بالدينونة على الفُجّار وبالمجد والبَرَكة إلى المؤمنين. وفي أعقاب مُلكِ الربِّ المُخلِّص ألفَ سنة، تأتي الدينونةُ الأخيرة التي تُفضي إلى الحالة الأبديّة. فإنّ جميع المؤمنين على مرِّ التاريخ كلّه يُدخَلون المجدَ الأبديَّ المُعَدَّ لهم، أمّا جميع الأشرار فسوف يُرسَلون إلى جهنّم كي يُعاقَبوا إلى الأبد.

وفي سبيل فهم الكتاب المقدّس، من الضروريّ أن نستوعب حركة التاريخ بكامل مداه من الخَلق حتّى الاكتمال النهائيّ. ومن المُهِمّ أيضًا أن نُبقيَ في أذهاننا التركيزَ على أنّ للكتاب المقدّس موضوعًا مُوَحَّدًا. فالموضوع الواحد الثابت الذي يتكشّف في كامل الكتاب المقدّس هو هذا: أنّ الله، لأجل مجده شخصيًّا، قدِ اختار أن يخلق ويجمع لنفسه جماعةً من الناس يكونون رعايا ملكوته الأبديّ، كي يُسبِّحوه ويُكرِموه ويخدموه إلى الأبد، وبواسطتهم سوف يعرض حكمته وقدرته ورحمته ونعمته ومجده. ولكي يجمع الله مُختاريه، كان واجبًا أن يفتديَهم من الخطيّة. ويكشفُ الكتابُ المقدّس خُطّة الله لهذا الفداء منذُ انطلاقته في الأزل حتّى اكتماله في الأبد. فالعهود والوعود والأحقاب جميعُها ثانويّةٌ بالنِّسبة إلى خُطّة الفداء الواحدة الثابتة الدائمة.

إنّ في الوجود إلهًا واحدًا. وللكتاب المقدّس خالقٌ واحد. إنّه كتابٌ واحدٌ كامل، وله خُطّةُ نعمةٍ واحدةٌ مدوّنةٌ منذ انطلاقتها حتى اكتمالها، مرورًا بتنفيذها. فمن التعيين السابق حتّى التمجيد، يحكي الكتاب المقدّس قصّة فداء الله لجماعته المُختارة لأجل مدح مجده.

وبينما تتكشّف مقاصدُ الله وخطّتُه في ما يتعلّق بالفداء، في أسفار الكتاب، يجري التشديد دائمًا على خمسة مواضيع مُتكرِّرة:

- طبيعة الله وسجاياه
- الدينونة بسبب الخطيّة والعصيان
- البَرَكة بفضل الإيمان والطاعة
- الربُّ المُخلِّص والذَّبيحة عن الخطيّة
- الملكوت والمجد الآتيان

فإنّ كلَّ ما هو مُعلَن في كِلا العهدين، القديم والجديد، مرتبط بهذه العناوين الخمسة. ذلك أنّ الكتاب المقدّس يُعلِّمُ أو يُبيِّن دائمًا: ١) طبيعةَ الله وسجاياه؛ ٢) مأساةَ الخطيّة وعصيان معيار الله المقدّس؛ ٣) غِبطةَ الإيمانِ وإطاعةِ مِعيار الله؛ ٤) الحاجةَ إلى **مُخلِّص**، حيث ببرِّه وفدائه يمكن الخُطاة أن ينالوا الغفران ويصيروا أبرارًا ويتغيَّروا جذريًّا ليُطيعوا مِعيار الله؛ ٥) النهايةَ المجيدة الآتية التي سيبلغها تاريخُ الفداء في ملكوت الربِّ المُخلِّص على الأرض، وما يليه من ملكوتٍ ومجدٍ أبديَّين لله والمسيح معًا. فمن الجوهريِّ عندما يدرس المرءُ الكتابَ المقدّس أن يستوعب هذه المواضيع المتكرِّرة كما لو كانت عَلاّقاتٍ عظيمةً تُعلَّق بها المقاطعُ المدروسةُ. وعند قراءة الكتاب كُلِّه، ينبغي أن يكون المرءُ قادرًا على إقامة الترابُط بين كلِّ جزءٍ من الكلمة المقدّسة وهذه العناوين البارزة، مُدرِكًا أنّ ما يتمُّ التعريف به في العهد القديم مُوضَّحٌ أيضًا في العهد الجديد بصورةٍ أجلى.
إنّ النظر في هذه العناوين الخمسة، كلٍّ على حِدَة، من شأنه أن يزوِّدنا بنظرة شاملة للكتاب المقدّس كلِّه.

١. إعلان طبيعة الله

إنّ الكتاب المقدَّس، قبلَ أيِّ شيءٍ آخر، هو إعلانُ الله لذاته. فهو يُعلِن نفسه بصفته إلهَ الكون المُهيمِنَ الذي شاء أن يصنع الإنسان ويجعل ذاته معروفةً عند الإنسان. وفي ذلك الإعلان لذاته يترسَّخ مِعيارُه الخاصُّ بالقداسة المُطلَقة. فمن آدمَ وحوّاء، مرورًا بقايين وهابيل، فإلى كلِّ إنسان قبلَ شريعة موسى وبعدَها، ترسَّخ مِعيارُ البرِّ وحُفِظَ حتّى آخِرِ صفحة من العهد الجديد، بحيثُ يؤدِّي انتهاكُه إلى الدينونة، الوقتيَّة والأبديَّة.

في العهد القديم، سُجِّل أنّ الله أعلن نفسَه بالوسائل التالية:

- الخليقة- من خلال الإنسان بالدَّرجة الأُولى، إذ خُلق على صورته تعالى
- الملائكة
- الآيات والعجائب والمعجزات
- الرؤى
- الكلام المنطوق بأفواه الأنبياء وغيرهم
- الكلمة المقدَّسة المكتوبة (العهد القديم)

وفي العهد الجديد، سُجِّل أنّ الله أعلن نفسه أيضًا بالوسائل عينها، ولكن بصورةٍ أوضح وأكمل:

- الخَلق: الله- الإنسان، يسوع المسيح، صورة الله بالذات
- الملائكة
- الآيات والعجائب والمعجزات
- الرؤى
- الكلام المنطوق بأفواه الرُّسُل والأنبياء
- الكلمة المقدَّسة المكتوبة (العهد الجديد)

٢. إعلان الدينونة الإلهيَّة بسبب الخطيَّة والعصيان

يتناول الكتاب المقدَّس تكرارًا مسألة خطيَّة الإنسان التي تؤدِّي إلى الدينونة الإلهيَّة. فإنّ حادثةً بعد أُخرى في الأسفار المقدَّسة تُبيِّن النتائج المُهلكة لانتهاك معيار الله، في الزمان والأبديَّة. فالكتاب المقدَّس يحتوي على ١١٨٩ أصحاحًا، أربعةٌ منها فقط لا تشمل عالمًا ساقطًا: الأوَّلان والأخيران أي قبل السقوط وبعد خلق السماء الجديدة والأرض الجديدة. أمّا الباقي فهو تاريخُ مأساة الخطيَّة.

في العهد القديم، بيَّن الله بليَّة الخطيَّة، بدءًا من آدم وحوّاء، إلى قايين وهابيل، فالآباء الأوَّلين، والملوك، والكهنة، وبعض الأنبياء، والأُمَم الأجنبيَّة. ويتخلَّلُ العهدَ القديمَ كلَّه ذلك السجلُّ القاسي من الخراب المستمرِّ الناتج من الخطيَّة وعصيان شريعة الله.

وفي العهد الجديد، تُصبح مأساةُ الخطيَّة أكثر وضوحًا. فإنَّ الكرازة والتعليم عند يسوع والرُّسُل يبدأان وينتهيان بدعوةٍ إلى التَّوبة. ثُمَّ إنّ الملك هيرودس والقادةَ اليهود والأُمَّة الإسرائيليَّة، مع بيلاطس وروما وباقي العالم، يرفضون كلُّهم الربَّ المخلِّص، ويزدرون بحقِّ الله، وبذلك يَدينون أنفُسَهم. ويستمرُّ تاريخ الخطيَّة بِلا هَوادة إلى نهاية الدَّهر ورجوع المسيح في الدينونة. ففي العهد الجديد، يتميَّز العصيان بَعدُ بكونه أكثر وقاحةً من عصيان العهد القديم لأنّه يشتمل على رفض الربِّ المخلِّص يسوع المسيح في نور حقِّ العهد الجديد، ذلك النُّور السَّاطع سطوعًا أشدّ.

٣. إعلان البَرَكة الإلهيَّة بفضل الإيمان والطاعة

تَعِدُ الكلمة المقدَّسة تكرارًا بمُكافآت عجيبة في الزمان والأبديَّة تُعطى لأناسٍ يثقون بالله ويَسعَون لإطاعته. وفي العهد القديم، بيَّن الله غِبطة التَّوبة عن الخطيَّة والإيمان به تعالى وإطاعة كلمته، من هابيل، مرورًا بالآباء الأوَّلين، إلى البقيَّة في إسرائيل، بل أيضًا بالنسبة إلى الأُمم الذين آمنوا (كأهلِ نينوى مثلًا).

إنّ معيارَ الله للإنسان ومشيئتَه وناموسَه الأدبيّ كانت مُبيَّنةً دائمًا. وأُولئك الذين واجهوا عدم قدرتهم على مُراعاة معيار الله، وأدركوا خطيَّتهم، واعترفوا بعجزهم عن إرضاء الله بمجهوداتهم الذاتيّة وأعمالهم الشخصيَّة، وطلبوا منه الغفران والنِّعمة، أُولئك نَعِموا بالفداء والبَرَكة بفضل الرَّحمة، في الزمان والأبديَّة معًا.

وفي العهد الجديد، أبدى الله من جديدٍ ملءَ بَرَكة الفداء من الخطيَّة للتائبين. فقد كان هنالك أُولئك الذين تجاوبوا مع الكرازة بالتوبة من قِبَل يوحنا المعمدان. وآخرون تابوا من جرَّاء كرازة الربِّ يسوع. كما أنّ آخرين بعدُ من بني إسرائيل أطاعوا الإنجيل بواسطة كرازة الرُّسُل. ثمّ كان هنالك أخيرًا أُمَمِيُّون من جميع أنحاء الإمبراطوريَّة آمنوا ببشارة الإنجيل. هؤلاء جميعًا، وجميعُ الذين سيؤمنون على مرِّ التاريخ كُلِّه، موعودون بالبَرَكة في هذا العالَم وفي العالَمَ الآتي.

٤. إعلان الربِّ المخلِّص والذَّبيحة عنِ الخطيَّة

هذا هو لبُّ كِلا العهد القديم، الذي قال يسوع إنَّه تكلَّمَ عنه بالرَّمز والنبوَّة، والعهدِ الجديدِ الذي يُورِدُ السِّجلَّ الكتابيَّ المقدَّس لمجيئه. والوعد بالبَرَكة مُتعلِّقٌ بالنِّعمة والرحمة الموهوبَين للخاطئ. أمَّا النِّعمة فتعني أنّ الخطيَّة لا تُحسَب على الخاطئ. وهذا الغفران مُتوقِّفٌ على تأدية عقوبة الخطيَّة لإرضاء العدالة المقدَّسة، الأمرُ الذي يتطلَّب بديلًا، شخصًا يموت مكانَ الخاطئ. وقد كان البديل المُختار لدى الله، الشخص الوحيد المؤهَّل، هو يسوع. والخلاص هو دائمًا بوسيلة النعمة عينها، سواءٌ في أثناء أزمنة العهد القديم أو أزمنة العهد الجديد. فعندما يُقبِل أيُّ خاطئٍ إلى الله، تائبًا ومقتنعًا بأنَّه لا يملك أيَّة قدرة على تخليص نفسه من دينونة الغضب الإلهيِّ المُستحَقَّة، ويلتمس الرَّحمة، يُمنَح وعد الله بالغفران. عندئذٍ يُعلِنه الله بارًّا لأنَّ ذبيحة المسيح وطاعته تُحسَبانِ له. ففي العهد القديم، برَّر الله الخُطاة بالطريقة نفسها، استباقًا لعمل المسيح الكفَّاريّ. وعليه، فإنَّ هنالك استمرارًا للنِّعمة والخلاص على مدى تاريخ الفداء كلِّه. ولا تُغيِّرها أيضًا الثَّغرةُ بين الأُمَّة الشاهدة في العهد القديم، أي بني إسرائيل، وأهل الشهادة في العهد الجديد، أي الكنيسة. فإنَّ استمراريَّةً جوهريَّة تتركَّز في الصليب، الذي لم يكُن انقطاعًا في خُطَّة الله، بل إنَّه بعينه الأمرُ الذي إليه يُشير كلُّ ما عداه.

يتخلَّل الوعدُ بالمخلِّص والذبيحةِ العهدَ القديم كلَّه. ففي سفر التكوين، هو نسلُ المرأة الذي سيسحق الشيطان. وفي زكريّا، هو المطعون الذي تتحوَّل إليه الأُمَّة وبه يفتح الله ينبوع الغفران لجميع الذين ينوحون من جرّاء خطيَّتهم. وهو ذاك الواحد المرموز إليه في النِّظام الذبائحيِّ التابع لشريعة موسى. وهو البديل المتألِّم الذي تكلَّم عنه الأنبياء. وفي العهد القديم كُلِّه، هو المسيح الذي سيموت من أجل معاصي شعبه. ومن البداية إلى النهاية في العهد القديم، يُقدَّم موضوع الربِّ المخلِّص بصفته ذبيحةً عن الخطيَّة. فإنَّما بفضل ذبيحته الكاملة عن الخطيَّة فقط يغفر الله بنعمته خطايا المؤمنين التائبين.

وفي العهد الجديد، جاء الربُّ المخلِّص وقدَّم بالفعل الذبيحة الموعودة عن الخطيَّة على الصليب. وإذ أكمل كلَّ برٍّ بحياته الكاملة، وفَى حقَّ العدل بموته. وهكذا يكون الله نفسُه قد كفَّر عن الخطيَّة، بثمنٍ أغلى من أن يسبر الذِّهنُ البشريُّ غَورَه. وهو الآن يعمل لخير شعبه، موفِّرًا كلَّ ما هو ضروريٌّ ليكونوا مَوضِعَ رضاه. ذلك هو ما تعنيه الكلمة المقدَّسة عندما تتكلَّم عن الخلاص بالنِّعمة.

٥. إعلان ملكوت الربِّ المخلِّص ومجده

هذا الجزء الحاسِم من مقوِّمات الكلمة المقدَّسة يُوصِل القصَّة الكاملة إلى اكتمالها الذي رسمه الله. إنَّ تاريخ الفداء خاضعٌ لسيطرة الله، بحيث يبلغ ذروته في مجده الأبديّ. فالتاريخ الفدائيُّ سوف ينتهي بمِثل الدِّقَّة والصِّحَّة اللتين بدأ بهما. وحقائق الآخِرة ليست غامضة ولا مُبهَمة، كما أنَّها ليست عديمة الأهميَّة. فكما في كلِّ كتاب، كيفيَّةُ نهايةِ القصَّة هي الجزء الأكثر حسميَّةً وتشويقًا، هكذا حالُ الكتاب المقدَّس، إذ تُنبِّه الكلمة الإلهيَّة إلى بضع ملامح محدَّدة جدًّا للنهاية التي خطَّط لها الله.

في العهد القديم، نجد ذِكرًا متكرِّرًا لملكوتٍ أرضيٍّ يحكمه المسيح، الربُّ المخلِّصُ الذي سوف يأتي ثانيةً. وسوف يقترن بذلك الملكوت خلاصُ إسرائيل التائبة، وخلاصُ الأُمم، وتجديدُ الأرض من آثار اللعنة، وقيامة أجساد شعب الله الذين ماتوا. أخيرًا، يتنبَّأ العهد القديم بأنّه سوف يحصل «نَقضُ خَلقٍ» أوِ انحلال للكون، وخَلقٌ لسماء جديدة وأرض جديدة، ستكون الحالة الأبديَّة للأبرار، وجحيمٌ نهائيٌّ للأشرار.

وفي العهد الجديد، نجد توضيحًا وتوسيعًا لهذه الملامح. فإنّ **الملك** رُفِض وصُلِبَ، ولكنَّه وَعَدَ بأن يرجع في مجد، آتيًا بالدينونة والقيامة وبمملكته لجميع الذين يؤمنون. وسوف يشتمل المفديُّون على أُمميِّين لا يُحصَون من كلّ أُمَّة. وسوف تخلُص إسرائيلُ التائبة وتُطعَّم مجدَّدًا في أصل البَرَكة الذي فُصِلَت عنه إلى حين.

إنّ ملكوت الأُمَّة الموعود سوف يتمُّ التمتُّع به، والربُّ المخلِّصُ جالسٌ على العرش، في الأرض المُجدَّدة، ممارسًا سُلطتَه على العالم أجمع بعدَ استعادته حقَّه الشرعيّ، ومُتلقيًّا الإكرام والعبادة الواجبَين. وفي أعقاب ذلك الملكوت، سيحدث انحلالُ الخليقةِ المُجدَّدة، لكنِ الملوَّثةِ بالخطيَّة بَعد، وما يليه من خَلقِ سماءٍ جديدة وأرضٍ جديدة، وهذه ستكون الحالة الأبديَّة المنفصلةُ إلى الأبد عن الأشرار في جهنَّم.

تلك هي المواضيع الخمسة التي تشمل الكتابَ المقدَّس كلَّه. ولكي تفهمها من البداية لا بُدَّ أن تعرف الجواب عن السؤال الذي يُثار باستمرار: لماذا يقول لنا الكتابُ المقدَّس هذا؟ فإنّ لكلّ شيءٍ مكانَه في إطار هذا النموذج المجيد. فبينما تقرأ، علِّقِ الحقَّ بهذه العلاَّقات الخمس، فيتكشَّفَ لك الكتاب المقدَّس، لا باعتباره ٦٦ وثيقة منفصلة، ولا حتّى عهدين مُستقلَّين، بل كتابًا واحدًا، أنشأه مؤلِّفٌ إلهيٌّ واحد كتبه كُلَّه بموضوعٍ مُهيمنٍ واحد. هذا، وإنّ موضوع فداء الخطاة لأجل مجد الله، هذا الموضوع الجليل الطَّاغي، أرجو أن يكون دافعًا لكلّ قارئٍ على متابعة القصَّة من أوَّلها إلى آخرها باهتمامٍ مُشوِّق. فيا أيُّها المؤمن بالمسيح، هذه قصَّتُك. إنَّها من الله لك... وعنك. إنَّها تحكي لك ما خطَّطه لأجلك، ولماذا صنعك، وماذا كنت، وماذا صرتَ في المسيح، وما أعدَّه لك في المجد الأبديّ.

جون ماك آرثر